مناقشات

كيف نخسر الاصدقاء ؟

بقلم : وحيد النقاش

منذ حوالي سبعة أشهر ظهر كتاب المفكر الفرنسي مكسيم رودنسون الجديد « أسرائيل والرفض العربي ، خمسة وسبعون عاما من التاريخ » ومنذ حوالي شهرين بدأ الاهتمام به في العالم العربي ، ذلك لان مكسيم رودنسون صديق قديم للعرب وللتراث العربي ، صديق متفتح وتقدمي وعالم ، ودراساته القيمة معروفة في الاوساط العلمية المتخصصة وفي الاوساط الثقافية بشكل عام . وليس عهدنا ببعيد بدراسته العميقة المفصلة عن « اسرائيل واقع استعماري » التي نشرها بمجلة « الازمنة الحديثة » في شهر يونيو الماضي وكان قد أعدها قبل النكسة بقليل وأظن انها قد ترجمت في كتاب مستقل ظهر في دمشق منذ شهور . أما هذا الكتاب الجديد فقد نشر الاستاذ كامل زهيري تقييما وعرضا له في مجلة « المصور » بالقاهرة في ٢٠ سبتمبر الماضي ، وترجمت مجلة « المعرفة » فصله الاخير أو جزءا كبيرا منه في أحد أعدادها القريبة الماضية ، ونشرت « الآداب » عنه مقالا شديد التطرف بقلم الزميل اسماعيل المهدوي في عدد أيلول (سبتمبر) الاسبق . وهذا المقال بالذات هو الذي أريد أن أقف عنده وقفة قصيرة .

كان المقال صدمة لي رغم انني كنت على علم بان الزميل المهدوي سيكتبه ، وحين تحدث الي في أمره لم أكن قد قرأت الكتاب ، وكنت أظنه سيقوم بمناقشة للقضايا المطروحة فيه فذلك حقه المشروع ان لم يكن واجبه أيضا . ومصدر صدمتي ان المقال كاذب من أوله لآخره ، ومتطرف في الكذب الى درجة الضلال والتضليل معا . ولست هنا أحاول أن أدحض عن مكسيم رودنسون تهمة أو أن أرد عنه هجوما متطرفا ، فقراءة الكتاب وحدها كفيلة بان توضح ما حاول الزميل المهدوي أن يلقي عليه ملمحا أو مصرحا ظلال الشك والريبة ، شرط أن تكون قراءة متانية وموضوعية . وباعتقادي ان الزميل المهدوي قد استغل عامدا أو غير عامد ـ فالنتيجة واحدة ـ عدم وجود نص عربي **للكتاب في متناول القراء الذين يستطيعون ان يفصلوا في ادعاءاته ،** مفترضا ان قراءه من المواطنين العرب سيصدقونه اذ يقول لهم انه قرأ « لهم » الكتاب بالفرنسية ، وانه « فهم » لهم مقاصده ومرماه ، وفضح « لهم » نوايا مؤلفه الذي طالما انخدعوا في أمره ، والذي يدعي الماركسية ويدعي التقدمية ويدعي الاشتراكية وصداقة العرب على حين انه في حقيقة الامر التي توصل اليها المهدوي بفضل اخلاصه الشديد في قراءة الكتاب وتتبع مكر مؤلفه خلال كتبه الاخرى ، ليس الا يهوديا وصهيونيا يلوح بالرايات المختلفة الالوان !!

وهذا أسلوب لا يسع المرء الا ان ياسف لصدوره عن كاتب عربي يدعي « التقدمية لانه هو ذاته الذي يمكننا أن نخسر به أصدقاءنا الحقيقيين على المستوى العالمي ، وهم قلة نادرة ، والمهدوي يعطي لنا مثلا حيا على هذا الاسلوب . أقصر الطرق لخسران الاصدقاء هو أن نسيء فهمهم ونشكك فيهم . ومن سوء حظ المهدوي ان فصلا كبيرا من فصول الكتاب قد ترجم الى العربية في مجلة « المعرفة » ، ومن سوء حظه ان لمكسيم رودنسون أصدقاء كثيرين من التقدميين العرب ، ومن سوء حظه مرة ثالثة انه بدأ مقاله بكذبة ساذجة وسطحية ولا قيمة **لها شكلا وان كانت تدل على اسلوبه العام في التلفيق وهي قوله بانه** حمل الكتاب الى مكسيم رودنسون في بيته ليناقشه في محتوياته بينما ذهب اليه لشيء آخر تماما وهو أن يسأله الاشراف على أعماله العلمية في الفلسفة الاسلامية التي كان ينوي القيام بها لنيل احدى الشهادات من جامعة باريس وليطلب اليه النصيحة العلمية والعملية ! ثم أن مكسيم رودنسون لم يعرف بشأن المقال الا مصادفة حين أطلعه عليه بعض أصدقائه العرب من قراء « الآداب » !

ومرة أخرى لا أريد أن أدخل في تفاصيل مناقشة لحجج المهدوي واحدة بواحدة مما قد يخرج عن نطاق هذه الرسالة وقد يكون له **مكان اخر ، ولكنني اكتفي بالاشارة الى خطا منهجه في الرؤية** والعرض . فلقد نسي أو تناسى أن الكتاب تأريخ للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وان المؤرخ الذي هو مكسيم رودنسون حين يعرض لملامح من التاريخ للحركة الصهيونية فليس معنى هذا الا في نظر الساذج فقط ، انه يعرض رأيا خاصا . ثم انه لم يغير رأيه في الوقوف الى جانب العرب وان كان يقسو عليهم بالنقد هذه المرة لاسرافهم في القول وانسياقهم مع الحماس اللغوي ، وتلك حقيقة اكتشفناها نحن واعترفنا بها ونقدنا انفسنا نقدا ذاتيا على جميع المستويات بعد النكسة . ومكسيم رودنسون حين تحدث عن علاقة اسرائيل بالغرب أكد هذه العلاقة ووضحها بكلمات لا شبهة فيها بل وأكد أيضا ـ على **عكس ما يقول المهدوي ـ علاقتها بالرأسمالية الاميركية وتبعيتها** للرأسمال اليهودي بالذات في أميركا .

وسوف أكتفي بمثل بسيط على تعمد الزميل المهدوي اساءة الفهم اذ يقول ـ في مقاله بالآداب (ص ٥٩ في نهاية العمود الاول وبداية العمود الثاني) ـ ان رودنسون يحاول كثيرا ان يبرر موقف اسرائيل بالقاء اللوم على الرفض العربي واصرار العرب على عدم الاعتراف باسرائيل حيث يقول في ص ٢١٩ من الكتاب : « ان الرفض العربي معناه استمرار الحرب ، وفي أي حرب فان أي طرف لا يتنازل عن قطعة صغيرة من المميزات التي يكتسبها » .

وتلك الجملة بالذات هي نهاية فقرة كاملة اقتطعها المهدوي على هذا النحو ليبرر بها بالطبع افتراضه الاول المغلوط . أما الفقرة كلها فهي كما يلي : « ان سياسة اسرائيل الدائمة هي أن تنتزع الاعتراف **من العرب ، ليس بوجودها فقط ، الذي كان غزوا بالفعل ، وانما** بتوسعها أيضا عام ١٩٤٨ والذي يبدو في نظر أكثر الاسرائيليين اعتدالا انه يضمن أقل حد ممكن من الرقعة لحياة الدولة . كما ان هجرة اللاجئين ، أيا كانت أسبابها ، تبدو في نظرهم مسألة جوهرية لكفالة الصبغة اليهودية لتلك الدولة ، وهذه الصبغة أساس ومبدأ للايديولوجية الصهيونية . والرفض العربي يولد شعورا بعدم الاطمئنان يجعل أي تنازل شديد الصعوبة ، فالرفض العربي يعني أن الحرب **دائمة وفي كل حرب لا يتنازل اي طرف عن قطعة صغيرة من المزايا** التي حققها » .

وهكذا يصبح مقال المهدوي مجرد هجوم مختلق الاسانيد . ومكسيم رودنسون نفسه ـ بتواضع العالم الحقيقي ـ قد أكد ان النتائج التي توصل اليها غير منزهة عن الخطأ ، ولا يطلب ممن يريد مناقشته **والاعتراض عليه سوى حجج مدروسة لا مجرد الفاظ واختلاقات وتهم.** فلنناقشه اذا استطعنا لانه صديق ، ولانه صنع من نفسه طائعا وعن ايمان ، أحد الجسور القوية التي تعبر عليها قضيتنا الى الرأي العام في الغرب . ومن المؤسف أن نعمل اليوم على أن نخسر صديقا ، بعد أن عملنا من قبل على خسران قضايانا أمام الرأي العام العالمي .

وحيد النقاش

حول مقال «المثقفون والنكسة»

بقلم حسني سيد لبيب

كتب الدكتور جورج حنا في مجلة « الآداب » تحت عنوان « المثقفون والنكسة » مقالا أتهم فيه الاديب العربي بأنه لم يرتفع الى مستوى المسؤولية في ظروفنا الراهنة . وقد أرجع ذلك المفهوم الى ان الاديب مسؤول وهو مهندس النفوس .

يجب أولا ، وقبل كل شيء ، أن نقر هنا ان النكسة أو النكبة الثانية كانت بحجمها الكبير وثقلها الهائل أكبر وأعمق من أن تستوعبها طاقة الاديب العربي ، واذا هو حاول أن يستوعب كل أعماقها أو خطوطها العريضة ، فلا أشك في أنه سيلجأ حتما الى السطحية أو النداءات الحماسية التي شلت مقدرتنا الادبية منذ زمن غير قصير وأفسدت مزاجنا الادبي وجعلت الادب يدور في حلقات مفرغة .

ولست أبرىء الاديب العربي من التركة الثقيلة الواجب عليه فحصها ورعايتها ، وحتى هذا الادب العفوي الذي يضطر اليه الاديب كي يستوعب أبعاد النكبة الثانية ، حتى هذا الادب يكون شيئا ضروريا ومطلوبا ، ويكون شيئا مجيدا .

لكن مشكلة الادب هي انه ملزم بأن يعبر عن عصره وأن يتجاوزه أيضا ويكون نتاجه الفني صالحا لكل زمان وفي كل مكان ، وهي مشكلة معقدة . ولست أستطيع أن ألزم الاديب بأن يكون خطيبا أو زعيما للامة . وأيضا لن تعالج المسيرات الصامتة فجيعتنا . لن تفعل المسيرة الصامتة أو الصاخبة شيئا أمام رصاص العدو الذي يصرع اخواتنا واخواننا العرب في الارض المحتلة ، ولا يمكن ابدا ان نجابه الرصاص بالمسيرات أو برقيات الاستنكار . كما لا يمكن أن نجابه الرصاص بالشعارات أو النداءات الحماسية ، فكل هذا ـ اذا كنا نبحث عن دور الاديب في المعركة ـ لن ينتصر على منطق القوة .

ألا فلتفسد كل كلمة لا تعبر عن وجدان الجماهير العربية المناضلة، ولتفسد كل كلمة طيش تعبر عن غرورنا وتهويمات غيبية لا تمت بصلة الى الحس الفني الصادق ، وأصالة الخلق الفني وابداعه . ولتفسد كل كلمة لا تترجم عن واقعنا المعاش بغير اقليمية أو عنصرية وانما بتجاوزهما متغلغلة من أعماق الانسان العربي . واذا ما عبرنا عن الانسان العربي دونما تعصب ، فسيكون أدبنا معبراً عن قضية الانسان العالمي ، وهذا هو الادب الذي يمكن للاجيال القادمة أن تقرأه وتحس فيه روح عصرنا .

نحن لا نريد أن يغرق الادب العربي في المنازعات العربية وانما أن يستكشف الابعاد الانسانية وراء هذه المنازعات ، ولكن الادب العربي للاسف مهتم بشكل المنازعات ، بالصورة الخارجية .

ان نشيدا مثل « بلادي بلادي » يهز مشاعري ويحرك أشياء كثيرة دفينة ، ويحفزني الى فعل شيء من أجل هذا الوطن . وبرغم ان هذا النشيد الذي لحنه الموسيقار الخالد سيد درويش ، قد مضى عليه ما ينيف على نصف قرن ، فاني أحس انه يحكي لي أبعاد النكسة ويوقظني من غفلتي . أحس ان سيد درويش ملحنه بث فيه كل المرارة التي في نفوسنا ، لكنه لحن يصعد المشاعر ، ويبعث الهمة في النفوس. شيء عظيم فعله نشيد قديم ، واستطاع أن يعبر عن متطلباتنا الراهنة في الوقت الذي عجزت فيه عشرات الاناشيد والاغنيات الوطنية أن تصل الى هذا المستوى باستثناء أغنية « زهرة المدائن » التي تغنيها فيروز . واني لاتصور ان أغنية « زهرة المدائن » ونشيد « بلادي بلادي » سيخلدان وسيتجاوب معهما الانسان العربي بعد عشرات وعشرات من السنين .

كما ان هناك شيئين يبدوان وكأنهما متناقضان ، لكنهما في رأيي غير ذلك . فبعض المجلات العربية لا نكاد نقرأ فيها شيئا يعبر عن همومنا وأحزاننا تجاه أراضينا السليبة حتى نكاد نتصور ان تاريخ صدور هذه المجلات هو ما قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وقد نتصور أيضا انها صدرت قبل عام ١٩٤٨ . وهذا أمر يدعو الى الاسف ، بينما نجد صفحاتها تعج بقصائد في الرثاء ، وشكر شاعر لاديب على اهدائه كتابه الاخير !..

كما أنه ـ وهذا هو الشيء الثاني ـ قد يظن المرء ان الاديب ما لم يكتب عن المعركة والفدائيين وانتصاراتنا المرتقبة ! .. فانه يكون أديبا متخلفا ، ولا يعبر عن قضايا العصر .

لكني أرى ان الاديب الصادق هو ذلك الذي يقمس قلمه في دموعنا ودمائنا ، ويكتب على صفحات الورق ملحمة خالدة عن نوازعنا وقضايانا الانسانية . وليست النكسة هي كل شيء في حياة الاديب وفي حياة مجتمعه ، وانما هي شيء ملح في ذهنه وخاطره .. شيء يثور عليه ، ويقلق باله . لكن هناك أشياء كثيرة تقلق بال الاديب العربي وخاطره ، وهناك بطولات انسانية أخرى تزخر بها حياتنا .

ان الاديب العربي مطالب بأن يكتب ويكتب ويكتب .. ولكن أي شيء يكتب ؟! هذا هو جوهر المشكلة المعقدة ، وهذا هو المحك الذي نتلمس به أصالة الكلمة وابداعها ، ومن هنا تكون مسؤولية الاديب العربي الصعبة والمعقدة.. ومسؤوليته لن يجدها اذا اغترب، وانما اذا انغمس في واقع الجماهير العربية وعبر عن الانسان العربي كنمط للانسان أيا كان هذا الانسان . ومن احساس الاديب بالمسؤولية ينبع الادب الذي نريد أن نقرأه . حقا ان الادب مسؤول ، وهذا هو ما أتفق فيه مع الاستاذ الدكتور ، وان كانت هنالك ملاحظات حاولت قدر جهدي أن ألم بها في هذا المقال .

القاهرة — **حسني سيد لبيب**

هذا الشهر

ثورة « ماو » الثقافية

أشمل وأعمق ما كتب عن

الثورة الثقافية المعاصرة في الصين

بقلم

البرتو مورافيا

ترجمة وحيد النقاش

منشورات دار الآداب

عملية تزوير مبتذلة ...

بقلم : رشيد ياسين

لم أكن أعتزم التطرق الى كتاب « الشعراء العرب المعاصرون » الذي صدر في بلغاريا مؤخرا . فسرد القصة الكريهة مشقة للراوي والسامع على السواء . ولكن الخبر الذي ظهر عن هذه المجموعة في العدد التاسع من « الآداب » لا يدع مجالا للسكوت . وما دام كاتب الخبر ـ أيا كان غرضه ـ قد عرض المسألة على هذا النحو المشوه وتسرع في ابداء الرأي من غير تمحيص أو تثبت ، فلا مناص من جلاء الحقيقة ووضع هذا المطبوع الهزيل في المكان الذي يستحقه .

وينبغي أولا أن نلاحظ ، بأسف ، ان كاتب الخبر لا يتحلى بالقدر الضروري من الدقة والامانة . وهو يعطينا الدليل على ذلك منذ العبارة الاولى . فقد ادعى ان الكتاب المذكور ظهر أيام المهرجان فأثار ضجة كبيرة يستحقها . والواقع ان الكتاب لم يصدر الا بعد انتهاء المهرجان وعودة جميع الوفود الاجنبية الى بلدانها . أما النسخة التي أطلع عليها هو فقد جاءته بطريق شخصي وقبل ظهور الكتاب في الاسواق . وبالتالي فهذه الضجة لم تقم الا في رأس الكاتب نفسه . ويبدو انه أراد التقريظ فلم يجد بين يديه غير هذه العبارة الجوفاء .

ويمضي الكاتب بعد ذلك في كيل الثناء ، بسماحة مفرطة ، مقدمة الكتاب هي بقلم فانيا بيتكوفا وعبد الستار الدليمي ، دون أن ينتبه الى انها مذيلة بثلاثة أسماء . وصاحب الاسم الثالث ـ أو الثاني على الاصح ـ هو الطالب السوداني نوري صادق الذي لا أعرف وشيجة تربطه بالادب سوى كونه زوجا لبيتكوفا مارة الذكر !

ويمضي الكتاتب بعد ذلك في كيل الثناء ، بسماحة مفرطة ، للكتاب ومصنفيه قائلا انه « يستحق الكثير من الاعجاب والنبجيل للجهد المبذول فيه وللاخلاص والدأب اللذين يتجليان في ثناياه » . كل هذا وهو لم يقرأ منه سطرا واحدا ، وأنى له ذلك وهو لا يحسن البلغارية ، لغة الكتاب ؟!

وقبل أن نتصفح الكتاب لنرى مدى « الجهد المبذول فيه والاخلاص والدأب اللذين يتجليان في ثناياه » ، أجد من الضروري أن أقف بالقارىء وقفة قصيرة عند مقدمته العجيبة ، وهي بذاتها كافية لتحديد ملامح هذا الثالوث الذي انتدب نفسه لتعريف الرأي العام البلغاري بتراثنا الشعري . ولن أتناول بالتفصيل كل ما حفلت به هذه المقدمة من سخف لا يطاق وجهل فاضح بأبسط حقائق التاريخ العربي ، بل سأقتصر على ترجمة القليل مما ورد فيها ، وهو في حسباني يغني عن الاطالة :

« وفيما بعد توهجت في صفحات التاريخ المصفرة ، الواحد بعد الآخر ، الاسماء الخالدة لعمر بن أبي ربيعة والفرزدق وجرير و (ابن تمام) ووضاح اليمن وطرفة بن العبد و (بيشار بن برد) و (الاخطل أبو معلا المعري) . وكلهم سبقوا عصر هرون الرشيد (القرن الحادي عشر الميلادي) ... » .

لا أعتقد بين قراء « الآداب » من يفوته الانتباه الى ان هذه الفقرة ، على قصرها ، مشحونة بالاخطاء المضحكة . ومع ذلك فلا بأس أن نقول ، لواضعي الكتاب على الاقل ، أن عصر الرشيد هو نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلادي ، وان « ابن تمام » و « الاخطل أبو معلا المعري » ـ هكذا سماهما الكتاب ! ـ لم يسبقا عصر هرون الرشيد ، فأبو تمام عاصر المعتصم ، كما هو معروف ، بينما جاء أبو العلاء الى الدنيا بعد الرشيد بنحو قرنين من الزمان ! أما طرفة بن العبد الذي « توهج اسمه في صفحات التاريخ المصفرة بعد وضاح اليمن » فهو ، اذا أسعفتنا الذاكرة ، من شعراء الجاهلية !.. ولكن ما جدوى الاطالة ، وهذه حقائق أولية لا تخفى حتى على التلامذة الصغار ؟.. فلنعد الى المقدمة :

« ان أبرز الشعراء العرب الافريقيين هم : « ابن رشيق القيرواني » و « أبو الحسن الصحراوي » ـ هكذا ورد الاسم في الكتاب ولم أوفق الى معرفة المقصود به ! ـ وغيرهما . وتنبغي الاشارة على انفراد الى « أبو المعري » الذي كان ، فضلا عن الشعر ، مؤلف النثر المسمى بـ « الرسالة الالهية » التي أفاد دانتي وجون ملتون من موضوعها فيما بعد ... » .

ماذا يؤخذ من سياق العبارات المتقدمة ؟ يؤخذ منها ان أبا العلاء ـ ولندع جانبا التحريف الذي أصاب اسمه مرتين ـ كان افريقيا ، لا سوريا من معرة النعمان ! أما أين عاش ومتى ، وما مذهبه الفلسفي ومكانه من تاريخ الفكر العربي ، فهذا ما لم يجد واضعو المقدمة ضرورة للاجابة عليه . وحتى لو وجدوا ضرورة فبماذا يجيبون ؟!.. ومن الواضح ان « الرسالة الالهية » المشار اليها هي « رسالة الغفران » ، ولا أدري هل نتج تحريف الاسم عن اخفاق مساعدي السيدة بيتكوفا في العثور على المفردة البلغارية المناسبة ، وهو احتمال جائز كما سنرى فيما بعد ، أم انها افترضت أن رسالة المعري لا بد أن تكون بهذا الاسم ما دام دانتي قد استمد منها ملحمته « الالهية » (١) . وسواء كان السبب هذا او ذاك ، فان « الاخلاص والدأب » هما آخر ما يصلح لتقييم مجهود واضعي هذه المقدمة . ولولا غياب هاتين الصفتين بالذات لما شق على بيتكوفا أن تجد معطيات دقيقة وافية عن أبي العلاء وعصره وتآليفه في الموسوعات الاوروبية ، كدائرتي المعارف السوفياتية والبريطانية وغيرهما . بل ليتها راجعت كتاب « في تاريخ الفلسفة العربية » ، وهو بحث نفيس صدر في بلغاريا خلال العام الماضي ، وفيه عن أبي العلاء ما يغني عن هذا التخبط المحزن !

وقبل أن نفارق هذه المقدمة الخفيفة الظل لنستعرض القصائد ، سأقتطف للقارىء العربي بضعة أسطر أخرى . ولن أعقب بشيء هذه المرة والا جاز اتهامي بأني أفترض في القراء جهلا ما بعده جهل :

« وفيما بعد انقسمت الدولة العربية الى أجزاء وضعفت . وقد أتاح هذا للتتر فرصة التوغل بحرية واخضاع العرب . فهاجموا دمشق بقيادة تيمورلنك ولم يتركوا وراءهم الا الخراب . وقد وصف المؤرخون هذه الفترة بأحلك الاوصاف . فالمدارس والمعابد حولت الى حظائر ومرابط للخيل . أما نهر دجلة فقد بات أزرق ـ أسود من الدم والحبر ! » ...

هذه أمثلة قليلة مما حوته مقدمة هذا الكتاب ، وهي في جملتها لا ترتفع عن هذا المستوى المتدني . ولا أراني أحتاج ، بعد هذا ، الى القول بأنها خلت من أية دراسة جادة لتطور الشعر العربي ومنابعه التاريخية والاجتماعية وخصائصه الفنية وغير ذلك من المسائل التي يفترض في الباحث ان يلم بها ولو الماما عابرة ، ولا سيما حين يتصدى لتعريف شعب ما بشعب آخر .

ولو وقفت المهزلة عند هذا الحد لهان الامر ، ولكن اساءة مصنفي المجموعة بلغت ذروتها في اختيار ممثلي الشعر العربي المعاصر ، ثم في انتقاء القصائد ، وأخيرا في أسلوب ترجمتها . واذا كانت المقدمة التي سلف الحديث عنها نتاجا للجهل ولونا من ألوان الشعوذة ، فان اختيار الشعراء على نحو ما جاء في الكتاب هو نتاج التجرد المطلق من النزاهة ، وهو مثال مؤسف لاستحواذ شهوة الظهور على بعض المغمورين ممن تصح فيهم عبارة بايرون الشهيرة « انه لامر سار ، بالتأكيد ، أن يرى المرء اسمه مطبوعا ! » . فهذا الكتاب الذي يفترض فيه تعريف الشعب البلغاري الصديق بالشعر العربي المعاصر قد أغفل معظم الشعراء العرب البارزين ، وتضمن بالمقابل أسماء لا شأن لها بالمرة في حياتنا الشعرية المعاصرة . ولقد نوه كاتب الخبر تنويهها

---

(١) لعل من المناسب أن نشير هنا الى أن دانتي لم يكن هو الذي اطلق على ملحمته اسم « الكوميديا الالهية » ، بل اطلقت عليها هذه التسمية فيما بعد من قبل الاعجاب .

خاطفا بهـــذا العيب ، وذكر بعض الاسماء التي غابت عن الكتاب ، ولكنه استدرك قائلا ان هذا لا ينتقص بحال من قيمة الكتاب وأهميته. وهذا شبيه بأن يقال « ان زيـــدا أعور ومجدوع الانف ولكن هـــذا لا ينتقص بحال من فتنته وجماله » ! والواقع ان الشعراء الذيـــن أغفلهم الكتاب هم أضعاف من ذكر كاتب الخبر ، وحسب القارىء أن يعلم ان من بينهم هذه الاسماء الكبيرة : الياس أبو شبكة ، سعيـــد عقل ، فوزي المعلوف ، عمر أبو ريشة ، بـــدوي الجبل ، ابراهيم طوقان ، أبو القاسم الشابي ، خليل مطران ، ايليا أبو ماضي ، ميخائيل نعيمة ، جبران خليل جبران ، محمد مهدي الجواهري ، علي محمـود طه ، ابراهيم ناجي ، خليل حاوي ، فـــدوى طوقان ، أدونيس ... وستطول القائمة اذا أردنا الحصر ، ولكنا سنسلك طريقا أقصر فنقول ان المجموعة اقتصرت عـــلى شاعرين من لبنان هما الاخطل الصغير وشفيق المعلوف ، وضمت شاعرين من سوريا هما نزار قباني وخليل الخوري ! واختير من الشعراء المصريين : أحمد شوقي ، أحمـد زكي أبو شادي ، صلاح جاهين ، حافظ ابراهيم ، بيرم التونسي ، محمد كمال ، محمد عفيفي مطر !.. وهنا يبرز هذا السؤال : ما المقيـــاس الذي اعتمده المصنفون في اختيارهم ؟ اذا كان المقياس هو الشهـرة فأين مطران وأبو ماضي ؟ وأين بـــدوي الجبل وأبو ريشة ؟ وأيـن أبو شبكة وسعيد عقل ؟ وأين وأين ؟.. واذا كانت الغاية أن يمثـــل الشعر العربي المعاصر على اختلاف مدارسه ، فلماذا مثل الشعـــر اللبناني باثنين من شعراء الجيل الماضي ، ولم تشتمل المجموعة على شيء من شعر حاوي أو أدونيس مثلا ؟.. ولمـــاذا اختير عفيفي مطر وأهمل الشرقاوي ونجيب سرور وعبد المعطي حجازي وعبد الصبور ؟ وأين مكان بيرم التونسي وصلاح جاهين في مجمـــوعة اقتصرت ، عداهما ، على شعراء الفصحى ؟.. أسئلة كثيرة لا نرتجي لها جوابـا عند السيدة بينكوفا لانها شبيهة بـــذلك النبطي الذي كان « يدرّس أنساب أهل الفلا » في مصر يوم قصدها أبو الطيب !

واذ ننتقل الى الفصل الخاص بشعراء العراق نجد ان مصنفي المجموعة تجاهلوا عددا من أبرز الشعراء العراقيين ، وفي طليعتهـم الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري . وسأكتفي هنا بالاشارة الـى ثلاثة من الشعراء المعروفين الـــذين أهملهم الكتاب ، وهم محمود البريكان وعبد الرزاق عبد الواحد وكاظم جـــواد . ولكل من هؤلاء تأريخه الشعري الطـويل ، ودوره الملحـوظ في تطوير الشعر العراقي الحديث . ومما يضاعف الاساءة ان قصيدة محمود البريكان الرائعـة « رقم ٩٦ » مترجمة ومنشورة في احدى المجلات البلغارية منذ حوالي عشر سنوات ، وقد كان في الامـــكان ضمها الى المجموعة . كما ان لكاظم جواد أكثر من قصيدة مترجمـــة الى البلغارية . وقد نبهت ، شخصيا ، أحد أعوان السيدة بينكوفا ـ عبد الستار الدليمي ـ الى ذلك قبل صدور المجموعة بزمن طويل ، ولكن هم هذا الشاب الناشىء كان منصرفا الى احتكار أوسع حيز ممكن من الكتاب لنفسه ولصديقه من الطارئين على الشعر ، يدعى بدر الحبيب . وبالفعل فقد تضمـن الكتاب أربع قصائد للدليمي وثلاثا لبدر الحبيب الذي يتألف كـــل تأريخه الشعري ـ ان صح ان له تأريخا ـ من مقطـــوعتين أو ثلاث ، كتبت بمساعدة الغير ، ونشرتها له الصحافة الادبية من باب التشجيع! هذا بينما لم تزد حصة نازك الملائكة وبلند الحيدري وسعدي يـــوسف وكاظم السماوي عن قصيدة واحدة ، والبياتي عن قصيدتين . ولـم يضارع الدليمي والحبيب في عدد القصائد المختارة سوى المرحـــوم بدر السياب ، ويبدو انه حظي بهذا الشرف لانه لم يعد حيا فينـازع هذين السيدين عرش الشعر في العراق !!..

لقد قلت في مطلع الكلام انها قصة كريهة ، ولعل القارىء الكريم يدرك الآن ما عنيته .

فاذا جئنا بعد ذلك الى اختيار القصائد وجدناه قائما على الصدفة وايثار السهولة . وهكذا شملت الاساءة حتى الشعراء الذين احتـلوا مكانهم بحق في هذه المجموعة ، كأحمد شوقي ونزار قباني وبدر شاكر السياب . اذ وقع الاختيار على قصائد لا تمثل نضجهم الفني ولا تتبوأ مكانا هاما في نتاجهم . ويكفي أن نقول ان المجموعة لم تحو من شعـر أحمد شوقي سوى مقطوعة صغيرة عن النيل ، لم أعثر على أصلها في ديوانه ، والراجح انها من الازجال التي ألفها للغناء في سني حيـاته الاخيرة ! أما نزار قباني ـ وقد كتب اسمه بفتح النون ، كما ينطقـه السيد عبد الستار الدليمي ! ـ فمن حقه أن يفخر ، فقـــد حوت المجموعة ثلاثا من قصائده ، وبذلك وقف على قدم المساواة مع بـــدر الحبيب ، وهذه القصائد هي : « ويقال عن ساقيك .. » ، « نحـن دورنا القمر » ، « أحبك ... » . ولعل القارىء سيتساءل كمـــا تساءلت : أما كان ممكنا ، ونحن في غمار معركة كبرى مع الاستعمـار والصهيونية ، أن يستعاض عن هـــذه القصائد بـ « قصة راشيـل شوارزنبرغ » و « رسائل جندي من بور سعيد » وغيرهما من قصـائد نزار التي تصور محنة شعبنا العربي ونضاله، والتي سنكسب بترجمتها أصدقاء جددا لقضيتنا بين القراء الاجانب ؟..

ونصل آخر الامر الى ترجمة القصائد ، وهي في الواقع أســوأ ما في هذا الكتاب المشحون بالمساوىء . وينبغي أن أوضح منذ البداية ان جريرة ذلك لا تقع على عاتق الشعراء البلغار الذين وضعوا القصائد في قالبها النهائي بمقدار ما تقع على عاتق العرب الذين نقلوا هـــذه القصائد الى البلغارية ، وهم ـ كما ذكرت المقدمة ـ ثلاثة : نـــوري صادق والدليمي وطالب سوداني آخر . ولا أدري هل نجم كل هـــذا التشويه عن التسرع أم الجهل باحدى اللغتين أو كليهما ، أم لهـــذه الاسباب مجتمعة . وأيا كان السبب فان رداءة الترجمة تصل في أكثر الاحوال الى اهدار المعنى أو الى نقض ما يريده الشاعر . وسأقتصر هنا على مثالين اثنين ، هما قصيدة محمد الفيتوري « الى بول روبسن المغني » وقصيدة محمد سعيد الصكار « يوسف في غيابة الجب » ، وكلتاهما منشورة في عدد « الآداب » الممتاز الصادر في آذار عـام ١٩٦٦ . ولم أصطف هاتين القصيدتين لان ترجمتهما أردأ من البقية ، بل لمجرد انهما في متناول يدي الآن .

وأبدأ بقصيدة الفيتوري فأتناول جزءا من مقطعها الاول :

جثث الاحياء وأقبية الاموات
ورؤوس المهزومين الغضبى المحزونة
تتدحرج في الطرقات
تتسلق أشجار الغابات
تسترجع حلم الارض المطعونة ،
أرض المأساة .

وهذه ترجمته البلغارية أنقلها حرفيا :

جثث الاحياء
مع جنائز الاموات
ورؤوس القبور الحزينة
التي تنهمر مهشمة في الشوارع
وتتسلق الاشجـار فـي اعيـــاء
وتحـــول الحلم الـــى تراب عقيـــم ـ
أرض المأساة !..

هكذا تحولت هذه الابيات الجميلة الى صورة سريالية مضحكـة تنهمر فيها رؤوس القبور مهشمة في الشوارع وتتسلق الاشجار !.. خذوا مثالا آخر :

يا شاعر امريكا الفقراء
ومغنيها
الزنجي الضائع منا تحت تراب مبانيها
بحار السفن الغرقى حول موانيها
بلياتشو المقهى ذا الوجه المدهون
اللون القاتم في لوحات الرسامين
أحجار مناجمها
ودخان مواسمها ...

وهذه هي ترجمته :

أنت ، يا شاعر أميركا الفقيرة ،
أنت ، يا مغني الزنجي الضائع
تحت تراب مشارقها (!)
(ومغني) بحار السفن الغريقة
ومهرج المقهى ذي الوجه المدهون
والثلوج في لوحات رسامين اصابهم الجنون (!)
وأحجار المواسم المختلفة ...

ومن الواضح ان المترجم لم يفطن الى ان الزنجي الضائع وبحار السفن الغرقى ... الخ ، هي نعوت أطلقها الشاعر على بول روبسن نفسه . أما « تراب المشارق » و « أحجار المواسم المختلفة » و « الثلوج في لوحات الرسامين المصابين بالجنون » فقد حولت المقطع كله الى ضرب من الهذيان !

وفي موضع آخر ترجمة عبارة :

وتغني للقاتل
تستغفر من قتلك

الى « تستغفر الله لمن قتلك » ، وبذلك أضفى جهل المترجم على القصيدة طابعا مسيحيا غريبا على بول روبسن وصاحب القصيدة على السواء .

ومع ان هذه الامثلة كافية ، فان من الطريف أن يرى القارىء كيف ترجمت خاتمة القصيدة :

يا بول روبسن
مات الطفل الزنجي ...
وماتت جدته العمياء
الا كلمات
قالتها في أذنيه ذات مساء :
يا أبنائي غنوا للشدة
غنوا للشدة
لا يخلع انسان منكم جلده !

وهذه ترجمتها :

يا بول روبسن
مات الطفل الزنجي
وجدته الضعيفة
ولكن الكلمات التي كان يهمس بها في المساء
ما تزال تنبض في كل فم :
« غنوا للقوة ،
غنوا للقوة ،
واياكم أن تخلعوا
جلدكم الاسود » .

ويلاحظ هنا ان المترجم نسب الى الطفل الزنجي كلمات جدته العمياء ، وبذلك انتفت الحاجة الى ذكر الجدة أساسا . أما الاستعاضة عن « عمياء » بـ « ضعيفة » فمرده الى ان الكلمتين متقاربتان لفظا في البلغارية ، ويبدو ان المترجم يخلط بينهما ! ولم يفطن المترجم الى ان « الشدة » جاءت في القصيدة بمعنى « المحنة » وان استخدام كلمة « القوة » في هذا الموضع يغير المعنى ، ويجعل الفيتوري ، بالرغم منه ، من أتباع نيتشه !

وأنتقل الآن الى قصيدة الصكار « يوسف في غيابة الجب » . وسأتجنب الاطالة هذه المرة مكتفيا بأشعار قليلة مسخ فيها المعنى أو تحول الى نقيضه ، رغم أن القصيدة بسيطة التراكيب ، سهلة المتناول .

الاصل :

وأنت يا أبي
يا أعينا بيضا ، ويا تلا من الاحزان
ترعبك الذؤبان ...

الترجمة :

وأنت يا أبي ، بهذه الخصلات الشائبة
أنت الآن تل من الحزن
لا تخيفه الذؤبان (!) ...

الاصل :

الذيب ما كان ، ولن يكون
لكنها « مواهب » الانسان
متاهة تطفأ دون حدها الظنون
ويصدأ النسيان !..

الترجمة :

انه لم يمر ، ولن يأتي
ولكنه في ذاكرتي (!)

هذه نماذج قليلة أضعها أمام القراء العرب ليروا ان هذه المجموعة التي أراد لها ناشروها أن تكون نافذة يطل منها القارىء البلغاري على الشعر العربي المعاصر ، قد حولها الطموح المتجرد من المبادىء وضعف الشعور بالمسؤولية الى عملية تزوير تثير القرف . وأضعها على الاخص أمام كاتب الخبر المنشور في « الآداب » ليرى ان ارسال الاحكام اعتباطا وبدوافع المجاملة لا يدخل في باب الخدمة المخلصة لقضية الادب العربي ، ولا هو على الدوام من علائم الحذق والشطارة .

ولرب سائل يسأل : ما الذي منعك ، وأنت في صوفيا ، من التدخل في الامر قبل وقوعه ؟ والواقع ان هذه قصة طويلة آمل ألا يضطرني أصحاب العلاقة الى الخوض في تفاصيلها . ومع ذلك فلا بد من القول بأني بذلت قصارى ما استطعت للحيلولة دون صدور الكتاب على هذه الصورة الشائهة ، بل لقد وافقت مكرها على التعاون ، لفترة ما ، مع بيتكوفا والدليمي ، أملا في تقويم بعض الاعوجاج ، ولكن ضيق أفق هذه السيدة ـ ولا يجيز لي أدبي أن أنعتها بأكثر من ذلك ! ـ وسعي هذا الاخير لاتخاذ الكتاب معراجا للشهرة في بلغاريا قد جعلا التعاون متعذرا . وأذكر اني اجتمعت بالدليمي مرة لنراجع أسماء شعراء المجموعة ، ولاحظت في حينها غياب كثير من الاسماء المعروفة فاقترحت اضافتها والاقتصار على قصيدة واحدة لكل شاعر ليتسنى اشراك أكبر عدد من الشعراء في المجموعة . كما اقترحت حذف اسم السيد بدر الحبيب من كتاب لا مكان له فيه . ولم يجد الدليمي أمام وجاهة الرأي مفرا من التظاهر بالموافقة ، ولكنه حاول أن يرشوني ، بطريقته ، فاقترح أن نستثني أنفسنا ، نحن الاثنين ، من هذه القاعدة وننشر لكل منا أربع قصائد !.. وحين رفضت الاقتراح مشمئزا لاذ بالصمت وتظاهر بالتراجع . ثم جاءني بعد ذلك من يقول انه يروج عني في بعض أوساط الشعراء الشبان في بلغاريا انني لست بشاعر على الاطلاق . ولم أتحرك لاقول لهذا السيد ان العراق وغير العراق يعرفني شاعرا منذ أكثر من عشرين سنة ، وان خلقي يأبى علي التهريج واصطناع المسكنة ، ويأبى علي أن أدور كالبائع المتجول معلنا عن بضاعتي في المقاهي والحانات ! ولقد ترجمت قصائدي الى الروسية ونشرت في أكثر من كتاب (٢) ، دون أن تطأ قدمي أرض الاتحاد السوفياتي ، ودون أن أريق ماء وجهي في ادارات الصحف ، أو أقيم الولائم للمترجمين ! ولم أحد طوال حياتي الواعية عن شعار ألكسندر بوب : أتمسك بكرامة الشاعر ، وأصطفي ما يعجبني ومن يعجبني من الكتب والاصدقاء !.. لم أقل هذا في صوفيا ، حيث تستطيع اية ضفدع من ضفادع لافونتين ان تتوهم وتوهم انها باتت كالثور ضخامة ، وحيث يستغل بعض الوصوليين والادعياء طيبة القوم وعطفهم على قضايانا وبعدهم عن واقع حياتنا الادبية ليهدروا القيم وليوقعوا في الانفس انهم من أقطاب الفكر والكلمة في عالمنا العربي . ولكني أقوله هنا ، على صفحات « الآداب » لان ما يعنيني في المقام الاول هو أن تتضح الحقيقة للقراء والادباء العرب ، وهم أصحاب الكلمة الحاسمة في نهاية المطاف .

صوفيا — رشيد ياسين

---

(٢) « شعراء آسيا » عام ١٩٥٧ ، « الادب العربي المعاصر » عام ١٩٦٠ ... الخ .